نصوص فلسفية فى قيمة التاريخ ومنهجه (*)

١ — ديكارت (١٥٩٦م — ١٦٥٠م)

من « مقال فى المنهج » (القسم الأول) :

« أحسبنى أنفقت وقتاً كافياً فى دراسة اللغات ، بل وفى قراءات الكتب القديمة وما فيها من تواريخ وأساطير . لأن الحديث مع أبناء القرون الخوالى أشبه بالأسفار . فمن الخير أن نعرف شيئاً عن أخلاق مختلف الشعوب ، حتى نكون أسد رأياً فى الحكم على الشعب الذى ننتمى إليه ، ولئلا نظن أن ما يخالف أحوالنا مدعاة للاستهزاء ومناف للعقل ، كدأب أولئك الذين لم يروا شيئاً . لكن من ينفق وقتاً مفرطاً فى الأسفار ينته بأن يصبح غريباً فى وطنه ؛ ومن يبالغ فى استقصاء أمور العصور الماضية ، يظل عادة شديد الجهل بأمور عصره . فضلا عما تخيله الأساطير من أحداث كثيرة غير ممكنة وكأنها ممكنة ، فان أصدق التواريخ — وإن لم يغير أو يزد فى قيمة الأشياء لتصبح أحق بالقراءة ، — فإنه على الأقل يغفل دائماً تقريباً الأمور الأدنى والأقل شأناً ، فلا يبدو سائرها كما كان فى الواقع ؛ والذين يقتدون فى سيرهم بالأمثلة التى استخلصوها منها معرضون للوقوع فى التهاويل الجنونية المألوفة لدى فرسان الأقاصيص ، ولتخيل أفعال تفوق طاقتهم ».

٢ — بول فالرى (١٨٧١ — ١٩٤٥)

من خطبة له بعنوان « خطبة فى التاريخ » ألقاها فى حفلة توزيع الجوائز الرسمية بليسيه جانسون دى سابى فى ١٣ يوليو سنة ١٩٣٢ (نشرت فى مجموعة « منوعات » Variétés جـ ٤ ص ١٢٧ — ص ١٤٢) :

إن المؤرخين ورجال التاريخ ، أهل الدراسة وأهل الأفعال يتأثرون — على نحو شعورى حيناً ، لاشعورى حيناً آخر — ببعض الوقائع أو الملامح دون

(*) جميع التعليقات الواردة فى الهوامش من وضع المترجم .

بعض ، ويغفلون عن أخرى لا تلتئم أو تنقض مذاهبهم ؛ ولا يبدو أن ثمت تأثيراً ما لدرجة ثقافة هذه العقول ، أو لرسوخ علمهم أو سعته ، بل ولا لإخلاصهم أو عمقهم ، على ما يمكن أن يسمى « قدرة تباين الأهواء فى التاريخ » .

فسواء استمعنا إلى زيد أو عمرو (١) من الناس ، أو إلى جوزف (٢) دى ميستر النبيل الطاهر الرقيق القسوة ، أو إلى ميشليه (٣) العظيم الحار المشبوب الإحساس ، أو تين (٤) أو توكفيل (٥) أو مسيو أولار أو مسيو ماتييه — فبقدر عدد هؤلاء الأشخاص ، يكون عدد معتقداتهم اليقينية ؛ وبقدر عدد نظراتهم يكون عدد نصوص كتاباتهم . فكل مؤرخ لعصر ملىء بالأحداث يبرز لنا رقبة مقطوعة هى موضوع تفضيله .

وأى شىء أعجب من استمرار هذه الخلافات ، على الرغم من كمية وكيفية المجهود المبذول فى استقراء طائفة معينة واحدة من آثار الماضى ، ومن أن يتهم بعضهم بعضاً ، وتزداد النفوس صلابة وخلافاً وبعداً بعضها من بعض ، عن طريق هذا المجهود نفسه الذى كان يجب أن يقودهم إلى حكم واحد ؟

---

(١) فى النص : « مدام ديجا أو مدام لوبا » والأولى هى أم النحات المشهور ديجا والثانية أرملة لوبا Le Bas الذى كان من أعضاء الميثاق الوطنى ، وهى الجمعية الثورية التى خلفت الجمعية التشريعية إبان الثورة الفرنسية فى ١٧٩٢/٩/٢٠ وأعلنت الجمهورية وحكمت على لويس السادس عشر بالإعدام الخ . وقد أشار إلى زيارة الأولى الثانية فى استهلال هذه الخطبة .

(٢) فيلسوف دينى ومن أنصار البابوية فى فرنسا ؛ ولد فى شامبرى . ومن أشهر مؤلفاته : « البابا » ، « أماسى سان بطرسبورج » . ودافع فى كليهما عن مبدأ السلطة المطلقة فى الدين والسياسة فكان من أنصار الرجعية والاستبداد (سنة ١٧٥٣ — سنة ١٨٢١) .

(٣) جول ميشيليه (سنة ١٧٩٨ — سنة ١٨٧٤) مؤرخ فرنسى شهير ، اشتهر بالدعوة إلى الحرية فى الفكر والسياسة والدين — على النقيض تماماً من جوزف ديمستر — مما سبب منعه من التدريس فى الكوليج دى فرانس . وأشهر ما كتب : « تاريخ الثورة الفرنسية » ، « تاريخ فرنسا » ؛ ويمتاز بجمال الأسلوب وحرارة العاطفة .

(٤) هيوليت تين (سنة ١٨٢٨ — سنة ١٨٩٣) فيلسوف ومؤرخ وناقد أدبى فرنسى ؛ تأثر مناهج العلوم الطبيعية فى دراسة الآثار التاريخية والأدبية والفنية . أشهر مؤلفاته : « فلسفة الفن » ، « تاريخ الأدب الإنجليزى » ، « أصول فرنسا المعاصرة » .

(٥) ألكسيس دى توكفيل (سنة ١٨٠٥ — ١٨٥٩) سياسى ومؤرخ فرنسى . أشهر مؤلفاته : « الدمقراطية فى أمريكا » ، « العهد القديم والثورة » ؛ وكان نبيل الأخلاق ، واسع الأفكار السياسية ، فأجمع الكل على تقديره .

وعبثاً ينمو المجهود وتتنوع المناهج ويتسع ميدان الدراسة أو يضيق ، وتدرس الأمور بنظرة عالية جداً أو ينفذ المرء إلى نسيج العصر الدقيق ، ويستقصى الوثائق المحفوظة عند الأشخاص والأوراق الباقية عند الأسر والشئون الخاصة وصحف العصر والقرارات المحلية — فهذه التوسعات المتنوعة لاتتلاقى أبداً ، ولا تنتهى عند فكرة واحدة تفضى إليها . بل ينتهى كل منها إلى طبيعة مؤلفها وأخلاقهم ، ولا ينتج عنها أبداً غير نتيجة بينة واحدة وهى : استحالة فصل من يشاهد عن الشيء الذى يشاهده ، والتاريخ عن المؤرخ .

ومع ذلك فثمت نقطاً يترافأ عليها الجميع . فى كل كتاب تاريخ قضايا يتفق عليها الممثلون والشهود والمؤرخون والأحزاب . وهى لفتات موفقة ، وأمور عرضية حقاً ؛ ومجموع هذه الأمور العرضية ، وهذه الشواذ الجديرة بالملاحظة ، هو الذى يؤلف القسم المؤكد من معرفة الماضى . وهذه الأعراض ذات الاتفاق ، وهذا التلاقى فى الموافقات — يحدد « الوقائع التاريخية » ، ولكنه لا يحددها تحديداً تاماً .

فالناس جميعاً متفقون على أن لويس الرابع عشر توفى فى سنة ١٧١٥ . لكن وقع فى سنة ١٧١٥ ما لانهاية له من الأمور الأخرى الملحوظة يحتاج تسجيلها كتابةً إلى ما لانهاية له من الكلمات والكتب بل والمكتبات لحفظها . فلا بد إذن من « الاختيار » ، أعنى من الاتفاق ليس فقط على « وجود » الواقعة ، بل وأيضاً على « أهميتها » . وهذا الاتفاق رئيسى جداً . والاتفاق على الوجود معناه أن الناس لا يمكن أن « يعتقدوا » إلا ما يبدو لهم أقل حظاً من الإنسانية وأنهم يعدون أمر اتفاقهم أضعف من أن يقدر على استبعاد شخصياتهم وغرائزهم ومصالحهم ونظراتهم الفردية ، — وهى مصادر الخطأ وقوى التزييف . لكن لما كنا لا نقدر على الاحتفاظ بكل شيء ، ولابد من التخلص من خضم الوقائع اللامتناهى بواسطة حكم على أهميتها النسبية فيما بعد ، فإن تقرير الأهمية يُدخل من جديد فى العمل التاريخى ما حاولنا تجنبه واستبعاده ، ولا مفر من ذلك . والأهمية هنا ذاتية خالصة ، كما يقول زملاؤكم فى قسم الفلسفة . إذ الأهمية موكول إلينا تقديرها ، مثلها مثل قيمة الشهادات (الباقية لدينا) . وللمرء الحق

فى أن يظن أن اكتشاف خواص الكينا « أهم » من أية معاهدة عقدت حوالى ذلك العهد ؛ والواقع أنه فى سنة ١٩٣٢ يمكن أن تذهب نتائج هذه الأداة الدبلوماسية (المعاهدة) هباء وتفنى فى خضم الأحداث ، بينما الحمى يمكن تعرفها دائماً والمناطق ذوات الملاريا يكثر وفود الناس عليها واستغلالها ، وأن الكينا لعله لا غنى عنها من أجل احتلال الأرض كلها والبحث عن الثروة فيها ، وهذا الأمر هو الظاهرة السائدة ، « فى نظرى » ، فى هذا القرن .

وهكذا ترون أنى أنا أيضاً أشارك فى تقرير الأهمية حسبما أراه .

على أن التاريخ يقتضى ويتضمن كثيراً من الأهواء . فمثلا نجد من بين القواعد التى يعمل بمقتضاها قاعدة يعتقد بسهولة أنها دالة بنفسها ، ويمكن استخدامها بغير أدنى تحوط ، حتى إنه قد بدا للناس أنى أتيت أمراً منكراً حينما أردت منذ مدة أن أبحث عن صياغتها الدقيقة .

فهل أجرؤ على أن أحدثكم عن « علم التواريخ » Chronologie ، وكان فى الماضى أقسى مواد الامتحان ؟ وهل أجرؤ على إقلاق فكرتكم الناشئة عن العلية ، وتذكيركم بالمغالطة القديمة : « بعقبه إذن بسببه » post hoc , ergo propter hoc ، وتلعب دوراً خطيراً فى التاريخ ؟ وهل أقول لكم إن توالى السنين له قيمة محدودة عظيمة هى نفس القيمة التى للترتيب الأبجدى ، وإن توالى الأحداث أو وقوعها معاً لا معنى له إلا فى كل حالة على حدة ، وفى النطاق الذى فيه يمكن هذه الأحداث ، « فى نظر شخص ما » ، أن يؤثر بعضها فى بعض ؟ وأخشى أن أثير الدهشة والانزعاج إذا أومأت أمامكم إلى أن رجلا من نوع « الرجل الصغير الكبير » Micromegas [2] لو أنه تجول فى الزمان

(١) مغالطة منطقية فيها يفترض الإنسان أن حدثاً معلول لآخر ، لا لسبب إلا لأنه أتى بعقبه ، أى بعده . ويقول بيكن Bacon إن هذه المغالطة هى الأصل فى معظم الخرافات المتصلة بالتنجيم والمفاءلة .

(٢) ميكروميجاس : اسم بطل أقصوصة فلسفية لفولتير ، وضعها سخرية من الأديب فونتنل (سنة ١٦٥٧ — سنة ١٧٥٧) الذى ألف كتاباً عنوانه « تعدد العوالم » مزج فيه بين الحقائق العلمية والمهازل الأدبية البارعة ؛ وجعل فونتنل هذا « الرجل الصغير الكبير » ، وتهكم منه تهكماً لاذعاً .

حينما اتفق ، وانتقل فجأة من الإسكندرية القديمة فى أزهى عصورها إلى قرية فى أفريقية أو فى فرنسا الحالية ، لخيل إليه قطعاً أن عاصمة البطالمة الزاهرة (الإسكندرية) « أحدث » عهداً بمقدار ثلاثة أو أربعة آلاف سنة من تلك المجموعة من الدور والأكواخ التى يسكنها معاصرونا .

وهذه الموافقات Conventions لا مفر منها . ولهذا لا أنقد إلا إهمال أولئك الذين لا يبرزونها للعقول بوضوح ووعى . ويؤسفنى ألا يعمل فى التاريخ ما عملته العلوم الدقيقة فى نفسها حينما أعادت النظر فى أساسها وبحثت فى بديهياتها بكل عناية وأحصت مصادراتها (ومبادئها) .

ذلك أن « التاريخ » لعله فى الأصل ربة إلهام ، وأن القوم يفضلون أن يكون كذلك . هنالك لن يكون لدى ما أقوله . . . فإنى أمجد ربات الإلهام .

كما أن « الماضى » أمر عقلى خالص . فما هو إلا صور ومعتقدات . لاحظوا أننا نستخدم نوعاً من المنهج المتناقض لنكوّن مختلف الأشكال عن مختلف العصور : فمن ناحية ، نحن فى حاجة إلى الحرية فى ملكة تخيل حيوات الآخرين والشعور بها ؛ ومن ناحية أخرى ، لابد من تضييق هذه الحرية من أجل أن نحسب للوثائق حسابها ، وأن نضطر أنفسنا إلى ترتيب وتنظيم « ما كان » بواسطة قوانا وصور تفكيرنا وانتباهنا ، وهذه أمور « فى جوهرها حاضرة » . لاحظوا هذا على أنفسكم : فى كل مرة يتملككم فيها التاريخ وتفكرون تاريخياً ويلذ لكم أن تحيوا المغامرات الإنسانية فى عصر من العصور الغابرة ، يسند اهتمامكم هذا شعور بأن الأشياء كان يمكن أن تكون غير ما كانت عليه بالفعل وأن تتخذ مجرى آخر . وفى كل لحظة تتخيلون « لحظة — تالية » أخرى غير تلك التى تلت فعلا : ففى كل حاضر خيالى تضعون أنفسكم فيه ، تتصورون مستقبلا آخر غير الذى تحقق .

« لو انتصر روبسبيير ؟ — لو وصل جروشى [1] فى الوقت المناسب على

---

(1) Grouchy : امانويل دى جروشى : ماريشال فرنسى . حارب فى فنديه ، وكان على رأس الحملة فى إيرلنده ، وبرز فى عهد امبراطورية نابليون الأول . وفى عشيه معركة ووترلو كلف بمطاردة البروسيين بعد هزيمتهم فى ليني ، فتركهم يفرون ويلحقوا بالإنجليز وبقى هو بعيداً عن ميدان المعركة التى قررت مصير نابليون . ولد سنة ١٧٦٦ ، وتوفى سنة ١٨٤٧ .

أرض ووترلو ؟ — لو كان عند نابليون بحرية لويس السادس عشر وقائد بحرى مثل سوفرن . . . »[1] لو . . . دائماً لو .

وهذا الحرف العاطف الصغير « لو » ملىء بالمعانى . فلعل فيه يرقد سر الرابطة الباطنة بين حياتنا وبين التاريخ . إنه يبث فى دراسة الماضى قلق الانتظار ودوافعه المحركة التى تحدد لنا الحاضر . ويضفى على التاريخ قوى القصص والحكايات . ويشركنا فى هذا التوقف أمام الأمور غير اليقينية ، وهو ما يؤلف الإحساس بالحيوات الكبرى . والإحساس بمشاعر الأمم خلال المعارك التى يتقرر فيها مصيرها ، الإحساس الملازم للطامحين فى الساعة التى يرون فيها أن الساعة التالية ستكون ساعة التاج أو ساعة المقصلة ، الإحساس الذى يشعر به الفنان وهو يشرع فى إزالة الأغطية عن مرمر تمثاله أو يأمر بازالة العقود والدعائم التى لا تزال تسند البناء . . .

ولو جردنا من التاريخ عنصر الزمن الحى . لوجدنا أن مادته نفسها ، أعنى التاريخ . . . الخالص : ذلك المؤلف من وقائع فحسب ، من وقائع لا جدال فيها من ذلك النوع الذى تحدثت عنه — وجدنا هذه المادة لا معنى لها — ، لأن الوقائع ليس لها فى نفسها معنى . يقال لكم أحياناً : « هذه واقعة » ، « استسلموا للوقائع » . فهذا معناه : « آمنوا » . آمنوا ، لأن الإنسان لم يتدخل ها هنا وإنما الأشياء نفسها هى التى تتكلم . « هذه واقعة » .

أجل . لكن ماذا نعمل بـ « الواقعة » ؟ لا شىء أشبه من الواقعة بوحى فوثيا [2] ، أو بهذه الأحلام الملكية التى فسرها أمثال يوسف ودانيال — فى

---

(1) Suffren : بيير أندريه : ملاح فرنسى (سنة ١٧٢٦ — سنة ١٧٨٨) حارب الإنجليز ببسالة فى الهند منذ أن دخل البحرية الملكية سنة ١٧٤٣ ، ولكنه وقع بين أيديهم فى معركة الجزيرة الجميلة Belle-Isle سنة ١٧٤٨ ، ثم دخل فى طريقة فرسان مالطة سنة ١٧٤٩ ، واشترك فى الاستيلاء على ماهون Mahon سنة ١٧٥٦ . وحارب مع حيدرعلى فى الهند ضد الإنجليز ، ووكل إليه أمر قيادة خمس سفن سنة ١٧٨١ ، فحطم أسطول جونستون . ثم عين رئيساً لأسطول الهند سنة ١٧٨٢ وتحالف مع حيدرعلى وحارب الأميرال الإنجليزى هيوز خلال سبعة أشهر فى أربع معارك واستولى على نيجاباتام وترنكمال وظل متفوقاً حتى صلح فرساى سنة ١٧٨٣ . وتوفى سنة ١٧٨٨ خلال مبارزة.

(2) فوثيا Pythia : كاهنة أبولون فى دلف التى كانت تجلس على مقعد ذى ثلاث أرجل فوق شق فى صخرة ، وتتفوه — وهى فى حال التجلى — بعبارات متعثرة غامضة ، يتولى الكاهن تفسيرها على صورة أبيات منظومة .

الكتاب المقدس — للملوك الفزعين. فني التاريخ، كما فى سائر المواد، ما هو واقعى وضعى هو غامض يحتمل ما لانهاية له من التأويلات .

ولهذا فان أمثال دى ميستر وأمثال ميشليه ممكنون على السواء ؛ ومن هنا فانهم حينما يفكرون فى الماضى لعلهم أن يتصوروا أنفسهم أشباه الوحى والكهنة والأنبياء ، فيتشكلون بأشكالهم ويستعيرون سمو لغاتهم ؛ وفى نفس الوقت يضفون على « ماكان » كل العمق الحى الذى لا يثبت حقاً إلا للمستقبل .

وعلى هذا النحو يتشابه فى نفوسنا : رؤية [1] الماضى والتنبوء بالمستقبل ، واقتناص الماضى وتوقع المستقبل ، ولا نملك إلا الترجح بين الصور ، ويبدو الحاضر السرمدى شبيهاً بالاصطفاق بين فرضين متماثلين : أحدهما يفترض الماضى ، والآخر يقترح المستقبل .

وأنتم أيها الشباب الأغراء الماثلون أمامى . إنكم تجعلوننى أفكر فى أزمنة لن أراها ، وفى أخرى لن أراها عوض . أراكم وأرى نفسى حينما كنت فى سنكم ، فتغرينى الرغبة فى التنبوء بما سيكون .

لقد أطلت عليكم كثيراً فى الحديث عن التاريخ ، وكنت على وشك أن أغفل عن ذكر الأمر الجوهرى ، ألا وهو : إن أفضل منهج لتكوين فكرة عن استعمال التاريخ وقيمته ، — وخير طريقة لتعلم كيفية قراءته والانتفاع به —، هو أن يتخذ المرء من تجربته الخاصة نموذجاً لمعرفة الحوادث التى وقعت ، وأن يستخلص من الحاضر نموذج حب استطلاعه للماضى . فما رأيناه بأعيننا ، وما عانيناه بأنفسنا وما كنا عليه وما فعلناه ، — ذلكم هو الذى يجب أن يقدم لنا برنامج المسائل ، المستخلص من حياتنا نحن ، والذى سنطلب من التاريخ بعد ذلك تحقيقه ويجب عليه أن يحاول الإجابة عنه كلما سألناه عن الأزمنة التى لم نعشها . « كيف يمكن الحياة فى عصر ما معين ؟ » تلك هى المسألة فى صميم الأمر . فجميع التجريدات والأفكار التى تجدونها فى الكتب لا طائل تحتها ، إذا لم تعطوا الوسيلة لاكتشافها ابتداء من الفرد .

---

(١) فى هذه الفقرة لجأ فالرى إلى ألوان من الجناس والسجع بين الكلمات لم يتيسر أداؤه فى العربية ، وذلك بين prévoir revoir propos suppose, ressentir pressentir

لكن حينما يتأمل المرء نفسه تاريخياً ، — على ضوء التاريخ — ، ينساق إلى مشكلة معينة ، على حلها يتوقف مباشرةً حكمنا على قيمة التاريخ . فان التاريخ إذا لم يكن مجرد تلهية للعقل ، فما ذلك إلا لأننا نأمل أن نستخلص منه دروساً . إذ نظن أننا نستطيع أن نستنتج من معرفة الماضى بعض ما يسمح لنا بالتنبؤ بالمستقبل .

فلنرجع دعوى التاريخ هذه إلى أنفسنا ؛ وإذا كنا قد لمسنا بضع عشرات من السنين ، فلنحاول أن نقارن ما كان بما كنا نستطيع توقعه ، نقارن الحادث بالمتوقع .

كنت فى سنة الخطابة عام سنة ١٨٨٧ . (وسنة الخطابة قد أصبحت فيما بعدُ السنة الأولى[1]. وهو تغيير كبير يمكن أن نستخلص منه تأملات لاحد لها) .

إنى لأتساءل الآن ماذا كان يمكن التنبؤ به سنة ١٨٨٧ — أى منذ خمس وأربعين سنة — مما وقع فعلا منذ ذلك العام ؟

لاحظوا أننا فى خير الظروف للتجربة التاريخية . فلدينا كمية هائلة ، لعلها أكثر مما يجب ، من المعلومات : كتب ، صحف ، صور شمسية ، ذكريات شخصية ، شهود لا يزالون كثيرين . والتاريخ لا يبنى عادة بهذا القدر الوفير من المواد .

إذن ، ماذا كان يمكن توقعه ؟ إنى أكتفى بوضع المشكلة . وأشير فقط إلى بعض ملامح العهد الذى كنت فيه طالباً فى صف الخطابة .

فى ذلك العهد كان فى الشوارع مقدار من الحيوانات لا يرى إلا فى ميادين السباق ، ولم يكن ثم آلة واحدة . (لنلاحظ ها هنا أن بعض الباحثين المحصلين يرون أن استخدام الفرس فى الجر لم يشع إلا فى حوالى القرن الثالث عشر ، فأنقذ أوربا من الحمل ، وهى طريقة كانت تقتضى وجود العبيد . وهذا التشبيه يصور لكم السيارة — الأوتوموبيل — على أنه « واقعة تاريخية ») .

---

(١) لاحظ أن السنة الأولى فى نظام التعليم الفرنسى الثانوى هى السنة النهائية التى يحصل الطالب فى نهايتها على البكالوريا (القسم الثانى بفرعيه : فلسفة ، وعلوم ورياضة) . وسنة الخطابة (أو فصل الخطابة ، أو صف الخطابة كما يقول أهل لبنان وسورية) كانت هى سنة البكالوريا . وسميت كذلك لأنها السنة التى كان يدرس فيها الطالب علم الخطابة .

فى سنة ١٨٨٧ هذه كان الجو مخصصاً للطيور وحدها دون سواها . ولم تكن الكهرباء قد فقدت أسلاكها . والأجسام الصلبة كانت لا تزال صلبة ، والأجسام المعتمة كانت لا تزال معتمة . ونيوتن وجاليليو يحكمان فى سلام ؛ وعلم الفزياء هانىء وقواعده [1] مطلقة . والزمان يجرى بأيامه الهادئة : والساعات كلها كانت سواسية أمام الكون [2] . وتمتع المكان باللانهاية والتجانس لا يتأثر أبداً بشىء مما يجرى فى داخل أحضانه العظيمة . والمادة تحكمها قوانين حكيمة عادلة ، ولم يخطر ببالها أبداً أنها ستعدل منها شيئاً مهما يكن ضئيلا ، — حتى فقدت فى هذه الهوة من التجزىء [3] ، فكرة القانون نفسها . . .

ولكن هذا كله لم يعد اليوم إلا حلماً ودخاناً . لقد تغير هذا كله كما تغيرت خريطة أوربا ، وسطح الأرض السياسى ، وكما تغير مظهر الشوارع ، وزملاؤنا فى الليسيه — أولئك الذين لا يزالون أحياء ، وكنت تركتهم إما حاصلين على البكالوريا أو على وشك الظفر بها وإذا بى أجدهم اليوم أعضاء فى مجلس الشيوخ وقادة عسكريين وعمداء أو رؤساء ، أو أعضاء فى المعهد الفرنسى .

لقد كان من الممكن التنبؤ بهذه التغيرات الأخيرة ؛ ولكن التغيرات الأخرى ؟ إن أعلم العلماء وأعمق الفلاسفة وأبرع السياسيين فى سنة ١٨٨٧ — هل كان فى وسعه أن يحلم — مجرد حلم — بما نراه اليوم بعد مضى خمس وأربعين سنة بائسة ؟ إنه ليس من الممكن مجرد تصور ما هى العمليات العقلية التى ببحثها فى كل المادة التاريخية المتجمعة عن سنة ١٨٨٧ كان يمكنها أن تستنتج من معرفة الماضى — أياً كان رسوخ هذه المعرفة وإحاطتها — فكرة ، ولو تقريبية جداً ، عما عليه سنة ١٩٣٢ .

ولهذا فانى أتحاشى التنبؤ . إنى أشعر شعوراً عارماً — كما قلت فى مناسبة

---

(١) هنا إشارة إلى نسب اللاتعين فى فزياء بلانك وهيزنبرج والميكانيكا التموجية مما أدى إلى أزمة فى نظرية الجبرية فى الفزياء (راجع كتابنا « اشبنجلر» ص ٢٢ — ص ٢٤ ؛ القاهرة ط ٢ سنة ١٩٤٥) .

(٢) هنا إشارة إلى ما فعلته نظرية النسبية عند اينشتين من القول بعدة أنواع من الأزمنة تختلف باختلاف الراصد .

(٣) هنا إشارة إلى تجزىء الذرة ، وإلى عدم وجود جبرية دقيقة فى المستوى تحت الذرى .

أخرى — بأننا « ندخل المستقبل ناكصين على أعقابنا » . وهذا عندى أهم درس يعلمنا التاريخ إياه وأشده يقيناً ، لأن التاريخ هو العلم بالأشياء التى لا تتكرر أبداً . فالأشياء التى يمكن تكرارها ، والتجارب التى يمكن إعادتها ، والملاحظات التى يعلو بعضها بعضها ، كل أولئك من شأن علم الفزياء ، وإلى حد ما علم الأحياء.

لكن لا تخالوا أن تأمل الماضى بما فيه من غابر لن يعود أمر لا غناء فيه . إنه يبين لنا خصوصاً إخفاق التنبوءات البالغة الدقة إخفاقاً متواصلا ؛ وعلى العكس يكشف عن الفوائد الكبرى للإعداد العام المستمر الذى يسمح للإنسان بالعمل فى وقت مبكر ضد المتوقع — دون أن يدعى خلق الأحداث أو تحديها ، لأنها دائماً مفاجآت ، أو تنطوى على نتائج تثير الدهشة والذهول . . .

٣ — شارل سينيوبوس(*)

— ١ —

التاريخ علم ما فى ذلك ريب ، لأننا نستطيع أن نطلق كلمة « علم » على كل مجموعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث فى نوع واحد معين من الوقائع . فهو علم الوقائع التى تتصل بالأحياء من الناس فى « مجتمع » خلال توالى الأزمنة فى « الماضى ». ويدخل فى عداد العلوم « الوصفية »، وهى تختلف عن العلوم العامة اختلافاً بيناً . فهذه العلوم (الميكانيكا ؛ والفزياء ، والكيمياء ، وعلم الأحياء) تعمل لاكتشاف قوانين ، أعنى متواليات ثابتة من الظواهر التى من « نوع واحد » ، ضاربة صفحاً عن الأحوال الواقعية الزمانية والمكانية ، لأن هدفها ليس تقرير الواقع ، بل التنبؤ بما سيكون فى أحوال معلومة. والعلوم الوصفية تسعى لمعرفة « وقائع » réalités جزئية ، فتبحث كيف تتوزع : إما فى المكان وحده (علم الكون ، علم الجغرافيا ، علم المعادن ، علم النبات ، علم الحيوان) ، أو فى المكان وتوالى الأزمنة معاً ؛ وإلى هذا النوع الأخير

(*) هذا البحث قسم من رسالة طويلة بعث بها شارل سنيوبوس فى صيف سنة ١٩٤١ إلى فرديناند لوت ووجدتها زوج لوت بعد وفاته ضمن أوراقه وسلمتها إلى ر. فافتييه R. Fawtier فنشرها فى « المجلة التاريخية » Revue Historique (السنة السابعة والسبعون ، حـ ٢١٠ ، يوليو سبتمبر سنة ١٩٥٣) وتاريخ رسالة سنيوبوس ١٠ — ٢٩ يونيو سنة ١٩٤١ .

(الجيولوجيا ، علم العصور التاريخية العتيقة paléontologie) ينتسب التاريخ أيضاً . لكن له وضعاً نسيج وحده . فبينما جميع العلوم لا تعمل إلا فى نوع واحد من الظواهر ، نجد أن التاريخ يجب عليه أن يدرس فى آن واحد « نوعين » من الوقائع المختلفة كل الاختلاف : ١ — وقائع مادية تعرف بالحواس (أحوال مادية. وأفعال بنى الإنسان) ٢ — ووقائع من طبيعة نفسانية (عواطف ، أفكار ، دوافع) لا يدركها إلا الشعور ، ولا سبيل إلى الإضراب عنها لأنها توحى للناس بسلوكهم وتقتاد أعمالهم الحقيقية .

ولما كانت الوقائع أموراً ماضية ، فانها لا يمكن أن تلاحظ بطريق مباشر ، ولا يمكن إذن أن تعرف إلا بطريق « غير مباشر » وذلك بدراسة الآثار التى حفظت لنا منها . كما فى الجيولوجيا وعلم العصور القديمة . والوقائع فى التاريخ على نوعين : الموضوعات المادية التى كانت على صلة بالناس ، والنقول traditions الشفوية أو المكتوبة التى مرت من خلال الوسيط النفسانى للغة ، مضافة إليه ، فى حال النص ، علامة مكتوبة من نوع نفسانى . فـ « البقايا » — كلغة الإقليم واسم المكان ، والعرف الجارى (الحقل المكشوف ، الدورة الزراعية الثلاثية) ، والطقوس الدينية — إذا عرضت كنوع من الوثائق فهى ليست إلا صورة من النقل الشفوى ، صارت عادة منقولة بالطريق النفسانى خلال الأجيال المتعاقبة .

فمنهج العمل التاريخى وقد ارتد إلى عمليات غير مباشرة ، ناقصة سطحية جداً ، هو إذن يعتوره النقص بالضرورة . ولكنه وحده القابل لأن يطبق على جميع الدراسات المتعلقة بظواهر المجتمعات الإنسانية ، لأن كمية الوقائع التى يمكن الإنسان أن يشاهدها مباشرة كمية ضئيلة جداً ، لأن الحاضر سرعان ما يستحيل ماضياً . والواقع أن جميع الأعمال التى تجرى على الوقائع الاجتماعية تتم على وثائق مكتوبة — حتى البحث الاجتماعى فى التوتم والتابو ، وعلم السكان وعلم الإحصاء . ولهذا فإن الدراسات عن سائر أنواع النشاط تتخذ شيئاً فشيئاً صورة التاريخ (تاريخ اللغات ، والأديان ، والقانون ، والصناعة الفنية ، والعلوم ، والفنون) .

وكل عمل تاريخى يقتضى عملية سابقة : ألا وهى جمع مواد المعرفة ، أى الوثائق بالمعنى الواسع . وقد بدأ التاريخ — شأنه شأن العلوم الوصفية (علم الحيوان ،

والجيولوجيا) — بمجاميع شبيهة بمجاميع التاريخ الطبيعى . ويقوم بهذا العمل خصوصاً مختصون يديرون الحفائر ، ويحررون الفهارس والأثبات ، وينشرون كتب المراجع ؛ ودورهم فى هذا شبيه بدور علماء التاريخ الطبيعى الذين يهيئون مجاميع علم الحيوان أو علم النبات . وفيما عدا اكتشافات الأشياء من قبيل المصادفة والمساعى لدى من يملكون أوراق الأسرة أو المجاميع الخاصة ، نرى أن « علم الاكتشاف » فى المنهج التاريخى 'heuristique يقتصر فى الواقع على استخدام كتب المراجع والأثبات bibliographies

— ب —

وينقسم العمل فى كل علم إلى نوعين من سلاسل العمليات هما : « مشاهدة » الوقائع الجزئية بعزلها عن المجموع الذى تنتسب إليه ، — ثم المقارنة بينها على نحو يسمح بفهم « العلاقات » القائمة بينها . والإنسان لا يستطيع أن يدرك بطريق مباشر إلا الوقائع التى على قياس حواسه : من موضوعات أو كائنات محسوسة ، أو علاقات مباشرة للتوالى أو علاقة العلة بالمعلول . وعلى الرغم من أنه لا يوجد حد واضح متمايز بين كلتا السلسلتين : فالبحث فى الجملة ، عن الواقع هو من شأن العلم التحصيلى érudition ، وينقسم غالباً بين نوعين من المختصين : ناشرى الوثائق ، ومؤلفى الرسائل المفردة . أما البحث عن العلاقات فمن شأن التاريخ الذى يتخذ صورة مؤلفات عامة .

ولما كان التاريخ يعمل فى وقائع أصعب فى الرصد وبوسائل أشد نقصاً من أى علم آخر ، وكان إلى جانب هذا عارياً من كل أداة للملاحظة ، مقصوراً على قوى العقل الإنسانى وهو بطبعه مضطرب غامض متسرع ، فان المنهج يقتضى مقاومة السير التلقائى والعمل فى اتجاه معاكس لاتجاه الطبيعة ، وكل هذا بدقة وحذر .

والمسلك الذى تفرضه طبيعة مادة المعرفة فى التاريخ هو البدء من الوثيقة ، وهى الأثر المادى الوحيد عن الماضى ؛ ثم الارتفاع فى سلسلة العمليات النفسية : الكتابة ، واللغة ، والمعنى المجازى ، والمعنى الحقيقى ، وتمثيل الشىء فى نفس المؤلف ، حتى نصل إلى الواقعة التى عرفها . وهذا المنهج يقتضى نوعين من العمليات : « التحليل » (ويسمى هكذا مجازاً) وهو فصل كل واقعة من الوقائع الجزئية المعروضة إجمالا فى الوثيقة عن غيرها — فصلا فى الذهن ، لا فى الواقع

كما فى الكيمياء ؛ و « النقد » وقوامه تقدير قيمة المعلومات الواردة ، أعنى معرفة ما إذا كان بينها وبين الحقيقة الواقعية ذلك الاتفاق الذى نسميه « حقيقة » (طبيعتها من ميدان علم ما بعد الطبيعة) . والأمر الذى يجعل النقد ضرورياً هو أنه قد لوحظ بثلاثة مناهج مختلفة أن عدم التوافق بين العقل والإنسان والحقيقة الواقعية – وبعبارة أخرى « الخطأ » – شائع جداً . واكتشاف هذه الظاهرة ثبت يقيناً : (١) فى التاريخ بما شوهد من تناقض لا سبيل إلى دفعه بين وثيقتين ؛ (٢) وفى العمل القضائى بالتناقض بين شهود واقعة واحدة ؛ (٣) وكذلك ثبت بتجارب معامل علم النفس .

ويجب البدء بتحديد الواقعة المتضمنة فى الوثيقة ، قبل البحث فى قيمتها ؛ فالتحليل إذن يسبق منطقياً النقد . فاذا حللنا فكرة « الوثيقة الأصلية » بوصفها فكرة ذات أهمية بالغة ، تبين لنا أنها خداعة :

(١) فهى وقتية زائلة ، فان الوثيقة التى تعد أصلية طالما لم يكتشف المصدر الذى أخذت عنه تنزل عن مرتبتها إذا اكتشف هذا المصدر (فقد اكتشف مصدر هربوكراتيون[1] حينما اكتشف « دستور آثينية » لأرسطوطاليس ، وكشف عن الدوق دى بروى لما كشف عن دريه – بريزيه[2]) .

---

(١) ڤاليريوس هاربوكراتيون Valerius Harpocration : نحوى اسكندرى ، قال البعض إنه كان مؤدباً لفيروس Verus صهر ماركس أورليوس (سنة ١٢١ م – سنة ١٨٠ م) ، وقال آخرون إنه كان معاصراً للامبراطور يوليان المرتد (سنة ٣٣٢ م – سنة ٣٦٣) . وقد ألف « معجماً يونانياً » بالألفاظ الواردة لدى خطباء آثينية الكبار العشرة . وقد طبعه ألدى Alde فى البندقية سنة ١٥٠٣ و سنة ١٥٢٧ ؛ وجرونوڤيوس فى ليدن سنة ١٦٩٣ ؛ وبكر فى برلين سنة ١٨٣٣ ، ودندورف سنة ١٨٥٣ . ويتضمن ألفاظاً وأعلاماً وعبارات مأخوذة خصوصاً من الخطباء ، فى ترتيب أبجدى مع ذكر شواهدها غالباً و شرح لبعض النقط المهمة . وبعض المواد مستمد من آثار غير خطابية ، وفى تفسيراته يقتبس أحياناً من الكتاب اليونانيين الكبار من هوميرس حتى العصر المتأخر . وفيه إلى جانب ذلك معلومات ثمينة فى الآثار والدين والتشريع والاجتماع الخ .

(٢) أسرة دى بروى Broglie أسرة عريقة أصلها من كييرى chieri فى مقاطعة بيمونته بشمال إيطاليا ، ثم تجنست بالجنسية الفرنسية فى القرن السابع عشر ، وكان منها كبار رجال الدولة فى فرنسا ومنها اليوم عالمان مشهوران هما لوى دى بروى وأخوه موريس . والدوق دى بروى الأول هو الابن الثالث لكونت دى بروى (سنة ١٦٣٩ – سنة ١٧٢٧) وولد سنة ١٦٧١ وتوفى سنة ١٧٤٥ وبرز فى الحروب تحت لواء لوكسمبور وكاتينا وبوفلير وقندوم وڤيلار ، ولمع فى معارك فليريس ودينان وفيرمبور . وكان سفيراً فى لندن سنة ١٧٢٤ ، وأصبح بلقب ماريشال فرنسا سنة ١٧٣٤ . وابنه أيضاً كان دوقاً ولد سنة ١٧١٨ وتوفى سنة ١٨٠٤ : اشترك فى عدة معارك فى شمال فرنسا وضد بروسيا وأصبح بلقب ماريشال سنة ١٧٥٩ . وفى سنة ١٧٨٩ – وهى سنة قيام الثورة الفرنسية – عينه لويس السادس عشر وزيراً للحربية وقائداً للقوات المسلحة من أجل القضاء على الثورة . ولكنه اضطر إلى الفرار وكاد يذبح فى ڤردان ، وقاد جيش الأمراء سنة ١٧٩٢ وخدم روسيا سنة ١٧٩٧ حتى توفى سنة ١٨٠٤ .

(٢) ومن الصعب تحديدها بدقة لأن صفة المصدر المباشر تنتقل بتدرج متصل: من مخطوط المؤلف الأصلي مارين بالصورة الشمسية، والنسخة الكاملة، والنسخة الناقصة، والمستخرج والاقتباس بين أقواس — حتى نصل إلى التلخيص البسيط.

(٣) وهي خصوصاً واسعة بغير حق، كما في القضاء فكرة الشاهد المقبول الشهادة، لأنها تعترف ضمنياً بأن جميع توكيدات الوثيقة (أو الشاهد) مصدرها واحد وقيمتها واحدة. فليس لنا أن ننسب صفة « أصلية » إلى الوثيقة في جملتها: بل يجب إمكان انطباق هذه الصفة على كل خبر أو قول وارد فيها، أعني صفة أن الخبر أو القول واقعة شاهدها ورواها المؤلف بنفسه. وهكذا فان المعرفة المستخرجة من الوثيقة ترد إلى عملية كل علم وصفي؛ أعني « الملاحظة المباشرة ». فالتحليل، بالنسبة إلى الغالبية العظمى من الوقائع، يكشف عن أن المؤلف ليس هو الذي شهدها بنفسه، بل لاحظها مشاهد مجهول.

وأدع جانباً ما قلته في « المدخل إلى الدراسات التاريخية » عن موضوع النقد الخارجي (معرفة كيفية استخدام الوثيقة) والنقد الباطن (تقرير الاحتياطات التي يلزم اتخاذها بمناسبة كل واحدة من الوقائع الواردة في الوثيقة) — وعن النتيجة السلبية للنقد — وعن دور البرهان بواسطة قياس النظير — وعن استخدام الأسئلة (وأضيف إلى ما قلت أن « الفحص » المهيأ بواسطة مجموعة من الأسئلة المحددة الثابتة هو المنهج العام لكل أنواع البحث في الوقائع) — وعن القاعدة التي تقتضي البحث عما قصده المؤلف قبل استنتاج أي شيء منه — وعن ضرورة الاحتفاظ بالتحليل منفصلا عن كل تفسير.

والعملية الأخيرة التي تفضي إلى تقرير الواقعة بيقين علمي، تتم بمقارنة الأقوال المختلفة عن واقعة واحدة، وهي أقوال تترتب على عدة ملاحظات. وتتضمنها إما عدة وثائق مختلفة أو أيضاً وثيقة واحدة فيها تأخذ صورة موجز لعدد كبير من الملاحظات. فبهذه الطريقة تنحل مشكلة اليقين المعقدة في حال وجود وثيقة واحدة فريدة (مثل بطلميوس وأسماء الشعوب، « وجدول المراتب »[١].

---

(١) جدول المراتب Notitia Dignitatum: اسم وثيقة تتألف من قسمين: قسم خاص بأسماء الموظفين المدنيين والعسكريين في المنطقة الشرقية، وقسم آخر يسجل نظائرهم في المنطقة الغربية في الامبراطورية الرومانية. وهذا الجدول مشهور، لأنه الوحيد الباقي لنا من نوعه. وترتيبه كالآتي: =

واليقين المشروع نحصل عليه — كما فى سائر العلوم — بالاتفاق بين كثير من الملاحظات « المستقلة » بعضها عن بعض . فهذا اليقين يقوم على أساس « مماثل » لحساب الاحتمالات . فعدد الأخطاء المختلفة الممكنة هو من الكثرة بحيث من يندر أن تتفق جملة أخطاء مصدرها مختلف اتفاقاً تاماً دقيقاً . فالأقوال إذا اتفقت ، فان اتفاقها ليس من الممكن عملياً أن يقع إلا لأنها تتفق مع الحقيقة الواقعية . ومن المفهوم طبعاً أن النتيجة يجب أن تسبقها عملية خاصة لتعرف ما إذا كانت الأقوال مستقلة فى مصادرها .

— ج —

وبعد أن يقرر التحليل والنقد الوقائع الجزئية المنفصلة ، تبدأ سلسلة من العمليات لضمها بعضها إلى بعض وفقاً « للعلاقات » التى نكتشفها فيما بينها .

والوقائع ، — تبعاً لمكانها — تبدو على نوعين من العلاقات المختلفة كل الاختلاف :

(١) فبعضها يحدث بأن تتلاقى فى نفس المكان والزمان وقائع تنتسب إلى سلاسل مستقلة تمام الاستقلال ، وهذه هى المصادفات والاتفاقات العارضة (التى وضع نظريتها كورنو [1] Cournot) .

(٢) والثانية تحدث من وقائع ندرك بينها وبينها ما يسمى فى اللغة العامة بـ « صلة العلة بالمعلول » ، وفى اللغة العلمية نقول إن الواقعة السابقة « شرط » للتالية . ولا يمكن تطبيق منهج واحد للتصنيف على هذين النوعين . فوقائع

= ثبت موجز بكبار الموظفين ، ثم كل موظف كبير وأسماء من معه من الموظفين ؛ أما بالنسبة إلى العسكريين ، فيرد أسماء كل فيلق بحسب المنطقة التى يعسكر فيها . فورد فيها أسماء العمال (المديرين فى الأقاليم الكبرى) ، ومحافظى روما والقسطنطينية ، ونوابهم vicarii ، والحكام الكبار والقواد الخ . وقد نشر هذا الجدول سيك سنة ١٨٧٦ O. Seeck : Notitia Dignitatum

(١) ا . كورنو (سنة ١٨٠١ — سنة ١٨٧٧) : فيلسوف فرنسى ، كان مفتشاً للتعليم العام ، ومن أوائل الذين قاموا بنقد الأفكار الأساسية فى العلوم . قال باستحالة الوصول إلى معرفة جواهر الأشياء . وأول مؤلفاته هو : « عرض نظرية المصادفات والاحتمالات » (سنة ١٨٤٣) ، وفى هذه النظرية يقول إن اليقين فى المعرفة يبدو بمثابة حد تتدرج بالنسبة إليه مختلف درجات الاحتمال . والمهم فى مذهب كورنو أنه شبه الاحتمال بالنسبية : فالفرض يؤخذ به فى الفزياء لأنه يسمح بربط الوقائع الملاحظة ربطاً عقلياً .

المصادفات يمكن فقط أن « ترصد » وترتب فى وضعها الزمانى والمكانى (التاريخى والجغرافى) ووفقاً للأشخاص . والوقائع التى تؤلف جزءاً من سلسلة من الأمور المتوقف بعضها على بعض يمكن أن تصنف وفقاً لنظام المقدمات والتوالى (ما يسمى باسم العلل والنتائج) . لكن هذه السلسلة لا متجانسة ، لأن جميع الوقائع الإنسانية (والاجتماعية) من نتاج نوعين من الظروف والشروط :(١) المادية ،(٢) والنفسية التى لاندرك بينها أية نسبة ، بل هى تنتسب إلى نوعين من الحقائق الواقعية لا يمكن رده إلى غيره . فبين الفعل المادى وشرطه النفسى ، المسمى مجازاً باسم«الباعث» له (فكرة ، عاطفة ، دافع) ، لا توجد رابطة ثابتة . وكذلك لا توجد أيضاً رابطة بين الحقيقة الواقعية والفكرة التى يكونها الإنسان عنها ؛ وليست الحقيقة الواقعية ، بل الفكرة ، صادقة كانت أو كاذبة ، هى شرط الفعل. فليس وجود الجحيم أو قوة السحر ، بل الاعتقاد فى وجود الجحيم وفى السحرة هو الذى أحدث ألوان التوبة والقضايا . وليست رسالة محمدالحقيقية ، ولا إيمانه برسالته ، بل إيمان المسلمين هو الذى ولد الجهاد والامبراطورية العربية . والغالبية العظمى من الأفعال الإنسانية تنشأ عن نظرات خاطئة فى الحقيقة الواقعية . (والأمركذلك بالنسبة إلى الحياة الاقتصادية والحياة السياسية ، وفكرة القيمـــة ، والمذاهب السياسية) .

والحق أن الموضوع الحقيقى للتاريخ هو سلسلة النتائج الواقعية التى أحدثتها الأفعال ، والأفعال هى التى ترصد ؛ لكن لا يمكن فهمها إلا بمعرفة « كيفية » حدوثها ؛ بل من الصعب أيضاً رواية فعل دون بيان دواعيه . فلا يمكن أن نحكى كيف اكتشف كولمبس أمريكا إلا ببيان خطئه فى معرفة الأبعاد الحقيقية للأرض . وكل الوقائع التى تدرس بسبب نتائجها ، شأنها شأن عوارض المصادفات لا يمكن أن تصنف إلا فى إطار جغرافى وتاريخى ، وهى تؤلف مادة التاريخ العـــام .

وثمت وسيلة ثانية لجمع الوقائع وذلك بضم كل الكائنات الإنسانية التى يوجد بينها « نوع » من العلاقة المتحدة الطبيعية ، وتكوين جماعة منها متمايزة يطلق عليها اسم . فيستبين لنا :

(١) الجماعة القائمة على الأصلاب الحقيقية أو المزعومة أو المصنوعة ، وعلى الحياة المادية المشتركة (الأسرة ، القبيلة ، الفصيلة) ؛

(٢) الجماعة القائمة على علاقات الجوار والدفاع والمساعدة المتبادلة (القرية ، الناحية) ؛

(٣) الجماعة القائمة على علاقات التشابه فى عادات الحياة والنفسية ، واللغـــة ، والدين ، والعـــادات (الشعب بالمعنى العنصرى ويخلط بينه وبين العنصر بالمعنى الأنثروبولوجى خلطاً لا مبرر له) ؛

(٤) الجماعة القائمة على طاعة سلطة واحدة تقيمها القوة وخصوصاً التهديد باستخدام القوة ، والحرب ، والعدالة ، والشرطة .

وهذه الأنواع المختلفة للجماعات يجب أن توزع على مدى امتداد الأمكنة وتوالى الأزمنة (بالقدر المحدود الذى تسمح به الوثائق) .

والعملية الثالثة هى جمع الوقائع تبعاً لعلاقة المشابهة : وذلك بضم الوقائع التى تنتسب إلى « نوع » واحد من النشاط الإنسانى ، وكل منها يتحقق بالمزج بين فعل وواقعة نفسية — اللغة ، الاعتقادات ، الدين ، العرف ، طرائق المعيشة (فى الغذاء ، الملبس ، المسكن) ، الإنتاج ، التجارة ، القانون الخاص ، النظام السياسى . وتلك مادة التواريخ « الخاصة » . وفيها يدخل جانب من التجريد ، مما يغرى بمعالجتها كالعلوم العامة وبالبحث فيها عن « قوانين » ، إذ ترتبط بالواقع الوصفى لأنها محددة فى مكان (جماعة) وزمان . وأيسر الأنواع اللغة ، اللغة « الواقعية » ، التى « يتخاطب » بها ؛ وميزتها أولا أنها أبسط مزيج من هاتين الحقيقتين وهما : الحركات الفعلية للسان ، والعلاقة العقلية ؛ وميزة ثانية هى أنها تزودنا بمئات الآلاف (بل الملايين) من الأفعال المتشابهة كل التشابه . وهذا يسمح بتقرير أرصاد « أكثر وقوعاً » وإن لم تسمح تماماً بوضع قوانين « إحصائية » قائمة على « قانون العدد الأكبر » — وذلك فيما يتصل باستخدام لفظ أو صورة فى نظم الكلام أو هيئة صوتية . أجل! نحن لا نستطيع أن نعين بالدقة نسبة الذين يقولون « يتحدث الناس عن . . . » ، أو «من الناحية

الغالبة » ، أو « أتذكر ذلك » ، لكننا نستطيع أن نعرف أن هذه الصور أقل وقوعاً – وطبعاً في وقت معين حقيقي ، لأنها يمكن أن تصبح أكثر وقوعاً .

وهذه التجربة على اللغة تسمح بتصور الطبيعة الحقيقية في سائر أنواع النشاط ، للثبات المستتر تحت الأسماء الوهمية للقاعدة والقانون والثبات ، وما هو إلا كثرة الوقوع كثرة متفاوتة بل معرضة للزوال : كما يدل على ذلك حال كلمة قانون ومرسمه حينما يصبح غير صالح للاستعمال ، أعني خارجاً عن الأحوال العادية للتفكير والعمل .

(١) وكل معرفة بواقعة ماضية تبدو – مادامت وصلت عن طريق ملاحظة غير مباشرة – على صورة جزئية منعزلة في مدى المكان والزمان ، ولا يمكن استخدامها في واحد من التجميعات (بأنواعها الثلاثة) إلا باتمامها على نحو يجعلها تمتد إلى مساحة جغرافية ، أو جماعة إنسانية ، أو حقبة تاريخية .

(٢) وكل واقعة إنسانية تلاحظ من الخارج تحتاج أن تتم بأحوال نفسية ضرورية للفعل .

(٣) ومعرفة العلاقات الإنسانية تند عن الملاحظة المباشرة ، إنها « تركيب » من تأليف العقل ، عقلنا نحن .

فثمت إذن ثلاثة أنواع من المعارف لا يمكن تحصيلها إلا بعملية جديدة . وهذه العملية – وهي مشتركة بين الثلاثة – هي البرهان بواسطة قياس النظير ويقوم على تشابه الأفعال و « أحوال النفس » (العواطف ، الأفكار ، العزائم) ، ومختلف العلاقات الاجتماعية بين الناس في الماضي ونظائرها في ظواهر الحاضر ، ونحن نعرفها بتجربتنا الشخصية عن السلوك المعتاد للناس و « أحوال نفسنا » الخاصة . وهي عملية متفاوتة القيمة جداً ، تعادل استقراءاً علمياً للوقائع البيولوجية (فالوثائق عن الشعوب المتبربرة لا تكاد تتحدث أبداً عن النساء أو الأطفال ، ورغم ذلك فنحن موقنون بأنهم أنجبوا وتناسلوا على نحو إنجاب وتناسل المعاصرين لنا) – وهي فرض تخميني محض بمناسبة العواطف والأفكار ، بل وسلوك الأفراد . فهذا ميدان السير التي عمل فيها الخيال . ذلك أن قيمة برهان يتصل بالماضي تتوقف على قيمة أساسه مأخوذاً في معرفة الحاضر . فيجب له إذن أن

يؤسس على علم تجريبي بنواميس السلوك الإنسانى ؛ وهذا العلم لم ينشأ ويكتمل؛ وعلم النفس العام لا يمكن أبداً أن يقوم مقامه . والواقع أن كل مؤرخ يفكر بحسب أفكار نادرة غامضة ، وفى العادة خطأ ، اصطنعها لنفسه أو تلقاها من التقاليد الموروثة .

بل إن طريقة العقل الإنسانى فى تصور طبيعة العلاقات (بأنواعها الثلاثة) تصوراً تلقائياً تقوم على وهم : فالعلاقة ينظر إليها على أنها حالة ثابتة مستمرة ، يقيمها تماسك يعبر عنه على هيئة مجازية بأنه « رباط » بين الوقائع . وهذا الوهم شبيه بتصور المادة المتصلة (أو الجوهر) (على وفق الإدراك العام) التى أبدلت بها العلم المعاصر لتصور خلاء انتثرت فيه عناصر تفصلها أبعاد كبيرة . أما إذا فحصنا الحقيقة الواقعية فى سلسلة اللحظات المتتالية — وهذا هو الدور الخاص الذى يقوم به التاريخ — فاننا نشاهد أن واقع الوقائع الإنسانية (والاجتماعية) كلها يتألف من سلسلة « منفصلة » من الأفعال المتشابهة جداً ، ولكنها مع ذلك متمايزة الواحد من الآخر (ونضرب لهذا مثلا بالأصوات المتتالية للكلام ، والحركات المتوالية فى الحياة العادية) . والمادة الجامدة هى وحدها الثابتة ؛ على الأقل فى المستوى الإنسانى . ولكن الحياة كلها تقتضى حركات وتغييرات فى كل لحظة . وضعف العقل الإنسانى هو الذى يحملنا على الظن بأن هـذا « عين » ذاك وهو ليس إلا مجرد « شبيه » به . وعلى أن نتصور أنه « حالة وحيدة ثابتة ما ليس إلا سلسلة من الوقائع المتشابهة .

وثمت سبب آخر خطير لحدوث الخلط ؛ يرجع إلى أن اللغة لا تقدم أسماء لتمييز الأشياء بطريق مباشر اللهم إلا للأشياء الميسرة للحواس . أما الوقائع التى لا تدرك إلا بالشعور (النفسى) ، والعلاقات التى هى تركيبات للعقل — كل هذه لا يمكن أن يعبر عنها إلا بمجاز . والكثير منها قد دخل فى اللغة الجارية وصار من القدم بحيث لا تذكر أصولها ، وأصبحت بمعزل عن الإضرار والإيذاء؛فلم يعد المرء يفكر فى المعنى المجازى لقولنا : influer sur (يؤثر على) أو « يتوقف على » dépendre de . ولكن المجازات التى لا نزال نشعر بأنها مقارنة لما كانت قائمة على تشابه سطحى جداً يقتصر عادة على لمحة وحيدة ،

يمكن أن تزيف الحقيقة الواقعية باغرائها على مد المشابهة إلى ملامح أخرى . وأشد المجازات خطورة هى تلك التى تتعلق بمجموع من العلاقات المضمنة تحت اسم موضوع مادى : حجرى ، بناء (تركيب اجتماعى) أو كائن حى (الجماعة إذا شبهت بكائن عضوى) . فعن هذا الطريق تتولد كائنات خيالية ، يضيف إليها المرء أفعالا وأفكاراً ودوراً . والأمر كذلك فى سلاسل الوقائع منظوراً إليها كأنها حادث (حركة الإصلاح الدينى فى أوربا الحديثة ، الثورة الفرنسية) ، أو سلسلة من الأشخاص (الملكية ، والكنيسة ، والدولة) . بل يذهب الناس إلى حد أن يقولوا : شاءت المصادفة .

وأبعد أقسام التاريخ عن إثارة الجدل والتشكيك هو توالى « نتائج » الأفعال بالمعنى الواسع للكلمة ، وهى على كل حال غالباً ما تكون مختلفة كل الاختلاف عن مقاصد فاعليها .

إن هذه النتائج هى التى تغير أحوال الحياة ، فتقضى على القديمة وتنشىء الجديدة . والمظاهر الخارجية للعواطف والأفكار التى تؤلف مادة التواريخ الخاصة هى جزء من هذه النتائج . وهذا هو مجال التفاهم بين المؤرخين . لكن لا مندوحة عن الاختلاف : (أولا) حول جميع وقائع الحياة الباطنة ، لأننا نجهل قوانينها ؛ و (ثانياً) حول كثرة وقوع الأفعال (وتبعاً لهذا الاتفاق مع القواعد وألوان العرف) وحول نصيب كل فعل فى نتيجة ما من النتائج . ذلك أن التاريخ لا يملك أية عملية لقياس كثرة وقوع ظاهرة وأهميتها ؛ والإحصاءات والمتوسطات الحسابية ليست مقاييس .

وها أنذا أدع القلم فأمسكه عن الاستمرار فى هذا الموجز الذى قد أصبح مسهباً ، وقد أخر تحريره إرسال رسالتى هذه إليك بغير موجب . ومع ذلك فان شاقك فنى وسعى أن أتمه ، فيما يتصل بالبند (٣) : الاحتياطات ضد المجاز ، رد كل علاقة إلى أفعال . . . (كلمة غير مقروءة) . — الفعل المتبادل بين أنواع النشاط المختلفة ، التضامن (الارتباط Zusammenhang) . — وهم زعم القدرة على النفوذ إلى المجموع ((Gesammt) عن طريق العيان المباشر ، فان المجموع لا يمكن أن يعرف قبل جمع الأجزاء ، وهذه لابد أن تكون قد درست من قبل .

عبد الرحمن بدوى